الحملة الفرنسية على الجزائر 1830م

أسباب الحملة الفرنسية على المدينة.

قبل البدء في الحديث عن أسباب الحملة الفرنسية على مدينة الجزائر يجب علينا أن نشير إلى أمر بالغ الأهمية، وهو أن الحملة ترعرعت في أذهان الملوك الفرنسيين ابتداء من "هنري الرابع"[1](Henri IV) مرورا ب "لويس 14"[2] (Louis XIV) و"نابوليون بونابارت" (Napoléon Bonaparte)، لقد كانوا جميعا يرغبون في تأسيس إمبراطورية استعمارية مترامية الأطراف، وهذا ما يفسر الإصرار الكبير ل"نابوليون" لاحتلال الجزائر لما أوفد جاسوسه "بوتان" (butin) عام 1808م بمهمة التجسس قصد إعداد تقرير لتحضير الترتيبات لاحتلال الجزائر، وتمكن هذا الأخير من تقديم دراسة راقية، حيث تمكن بدقة من معرفة وضع الداي وقوة الجيش العثماني ومواطن القوة والضعف...

أ- السبب المباشر:

جل المؤرخين الأوربيين يتخذون من حادثة المروحة سنة 1827م، السبب المباشر الرئيسي لاحتلال فرنسا للجزائر، وقبل الحديث عن هذه الواقعة، نحاول العودة قليلا إلى الوراء لمعرفة ملابسات هذه الحادثة التي أدت إلى القطيعة التامة بين الطرفين وتوتر العلاقات بينهما.

يعود سبب القطيعة إلى مسألة القمح التي ظلت مفتوحة ومعلقة لعدة سنوات، حيث بدأت فرنسا تظهر سوء نية تجاه الجزائر بعد أن ساعدتها في الأوقات الحرجة، وقد سمحت التجارة الخارجية للمدينة (خاصة تجارة القمح) التي كانت بيد التاجرين اليهوديين "بكري" و"بوشناق" اللذين استغلا فرصة حصار انجلترا لفرنسا، وأرسلوا كميات كبيرة من القمح إلى فرنسا، وباعوها بخمسة فرنكات للكيلة الواحدة، والتي لم تكلفهم سوى أربعة فرنكات، وهكذا تحصلوا من تلك الشحنات على ثلاث ملايين وسبعمائة وخمسين ألف فرنك. وأصبح ثمن القمح دينا بين الداي والحكومة الفرنسية. وأعلن "بكري" و"بوشناق" سنة 1800م أن الديون بلغت 07 ملايين من الفرنكات، ونجح اليهوديان في إقناع فرنسا على تسديد قسط من الديون، وتدخل "تاليران" (*Talleyrand*) وزير الخارجية الفرنسي فدفعت قسطا لليهوديين سنة 1819م قيمته 7 ملايين فرنك، لذلك قال "بوخوص" في "تاليران" ما يلي: «*لو لم يكن الأعرج، وهو يشير إلى تاليران، ملك يدي ما كنت أستطيع أن افعل شيئا في باريس*». وهكذا كانت هذه الصفقة الغادرة سببا في خسارة الطرفين لأموال طائلة.

وقد وافق الداي حسين على هذه التسوية على أمل أن تسدد فرنسا هذا الدين في أقرب وقت، لكن فرنسا تناست حقوق الداي، ففي ماي 1820م أعلن هذا الأخير ما يلي: «*ان الحكومة الفرنسية قد نفذت جميع التزاماتها بعد انتفاضة أكتوبر 1819م*». ولم يكن لدى للداي أي مبرر يؤدي الى بطء هذه الإجراءات، فقد اتضح له أن هناك مؤامرة كان القنصل "ديفال"[3] (Duval) طرفا فيها، و"تاليران" رأسها في باريس هو.

---

[1] **هنري الرابع** (Henri IV): ملك فرنسا ويعرف أيضاً بهنري الثالث ملك نافارا (13 ديسمبر 1553 - 14 مايو 1610)، حكم مملكة فرنسا من عام 1589 إلى 1610، وهو نفسه هنري الثالث من نافارا، ملك مملكة نافارا في الفترة من 1572 إلى 1610. وكان أول ملك من آل بوربون، العائلة الملكية الأوروبية المشهورة، وهي فرع من آل كابتيون. والداه أنطوان دوق فندروم وجين الثالثة ملكة نافارا.

[2] **لويس الرابع عشر** (Louis XIV): (1638 - 1715م). ملك فرنسا منذ 14 أيار 1643م حتى وفاته. وهو أحد أبرز ملوك البوربون، تولى الحكم وهو بسن الخامسة إلا أنه لم يكن يملك السيطرة الفعلية حتى توفي رئيس الوزراء "الكاردينال مازارين" في 1661م، كان يلقب بالملك الشمس وذلك لاهتمامه بالأدب والفن. وهو الذي قام ببناء قصر فرساي في فرنسا...

[3] **بيير دوفال** (Pierre Duval) أو (ألكسندر قسطنطين دوفال) آخر قنصل لفرنسا بالجزائر (1815- 1827) ارتبط اسمه بحادثة المروحة الشهيرة، التي كانت السبب المباشر لاحتلال الجزائر، عُيّن دوفال سفيراً لفرنسا في الجزائر من قبل لويس الثامن عشر، وذلك لأنّه كان يتقن اللغتين العربيّة والتركيّة، طرده الداي حسين من

أخذ الداي يرسل إلى الحكومة الفرنسية عدة رسائل يشكو فيها قائلا: «*أستطيع رد هذا المبلغ إلى فرنسا في مدة أربع وعشرين ساعة في حالة ما ذا كان أحد رعيانا مدينا لملك فرنسا*». وواصل الداي إرسال البرقيات لكن دون جدوى وهذا ما دفع به إلى فقدان صبره لعدم تلقيه أجوبة من الحكومة الفرنسية.

وبمناسبة عيد الفطر من عام 1243هـ الموافق ل 1828م جاء السيد "ديفال" عشية يوم العيد ليؤدي زيارته كما جرت العادة فأخبره الداي عن الرسائل التي بعث بها إلى ملك فرنسا في شأن أداء الدين الذي بقي في ذمة الدولة الفرنسية والتي تخص بكري وبوشناق، فكان جواب القنصل في منتهى الوقاحة حيث قال له: « *إن حكومتي لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم*»، وأراد القنصل من كلامه هذا استفزاز وتحقير الداي، وهذا ما أكده القنصل الأمريكي "وليام شالر"[4] (William Charles) الذي كان من بين الحاضرين، والذي أكد أن القنصل تعمد الوقاحة وافتزاز الداي لاستدراجه لإهانته وهذا ما مس كرامة الداي لدرجة انه لم يتمالك نفسه من الغضب وضربه بمروحيته "منشة الذباب" التي كانت بيده على وجهه، وهذا ما يؤكده السيد "بوتان" في قوله :« *ضرب الداي حسين السيد "ديفال" إلى وجهه بمروحية من ريش النعام*» وهناك رواية أخرى تقول أن الضرب لم يقع أصلا، ولكن الداي قام بتهديد القنصل بالضرب. فقام القنصل بتضخيم الأمر وأخبر ملكه بما جري، فجاءه أمر أن يغادر الجزائر فغادرها ومعه الفرنسيين المقيمين في مدينة الجزائر.

هذا هو السبب الظاهر للعيان، والذي اتخذته فرنسا كذريعة لاحتلال الجزائر تحت غطاء استرجاع كرامتها، فما هي الأسباب الحقيقية للاحتلال؟

الأسباب الحقيقية:

1- الأسباب السياسية:

تتمثل في اعتبار فرنسا حكومة الرياس في الجزائر التابعة للإمبراطورية العثمانية بدأت تنهار والدول الأوربية تتهيأ للاستيلاء على الأراضي التابعة لها، وخاصة أن الفرنسيين كانوا يعتقدون أنهم سيحصلون على غنيمة تقدر ب 150 مليون فرنك توجد بخزينة الداي كما أن شارل العاشر ملك فرنسا كان يرغب في خلق تعاون وثيق مع روسيا في حوض البحر المتوسط حتى يتغلب على الهيمنة البريطانية في هذا البحر والتمركز في ميناء مدينة الجزائر الذي كان يعتبر، في نظر الملك الفرنسي، تابعا للإمبراطورية العثمانية المنهارة. ثم أنه في عام 1827م وجد شارل العاشر معارضة داخل مجلس النواب تسببت في مشاكل كبيرة له، وكادوا أن يطيحوا به، ولتحويل أنظار الفرنسيين إلى الخارج اتخذ "شارل العاشر" الحملة على مدينة الجزائر وسيلة لحل مشاكله وإسكات المعارضة لكسب رضا الشعب الفرنسي، وقد اعترف الملك شارل العاشر في قوله: «*انه لشيء جميل أن نتقدم إلى البرلمان ومفاتيح مدينة الجزائر بيدنا*».

مجلسه لتطاول دوفال على أعلى مرتبةٍ قياديّة في الأيالة في ذلك الوقت، إضافةً إلى افتزازه الصريح وإهانته للداي وديوانِه، وهذا ما جعل الداي يطرده من خلال تلويحه بالمروحيّة، فلم يرق هذا الأمر للحكومة الفرنسيّة، وطالبت من الداي بالاعتذار خلال أربع وعشرين ساعة، إضافةً إلى رفع الرايةِ الفرنسيّة عوضاً عن الجزائرية. توفي في فرنسا عام 1829.

[4] **وليام شارل** (William Charles): سياسي، كاتب، ومفكر أمريكي مشهور ولد سنة 1778م أو حوالي سنة 1773م على اختلاف الروايات في مدينة بريج بورت Bridjport بولاية كونتيكت Connecticut ابن تيموثي شالر وسيبال وارنر (شالر. انخرط في بحرية الولايات المتحدّة في مرحل الشباب برتبة ضابط بين سنتي 1803 . 1808م ما أعطاه علما واسعا وخبرة كبيرة في وصف البلدان جغرافيا وتحديد مواقعها الفلكية بمنتهى الدّقة... اشتغل في السلك الدبلوماسي كقنصل عام في هافانا عاصمة كوبا قبل سنة 1812م ثمّ تحوّل إلى الجزائر كمفاوض ممثل لبلده في معاهدات الصلح ثمّ كقنصل عام للولايات المتحدة في الجزائر من 1816م إلى غاية 1824م ليعود بعدها إلى هافانا كما دُعِيَ في مناسبات عدّة إلى تمثيل بلده والمشاركة في مختلف المفاوضات الداخلية والخارجية... توفي بالكوليرا في هافانا بكوبا يوم 29 مارس سنة 1833م للمزيد:
http://histoiralgerie.blogspot.com/2010/12/2.html

2- الأسباب العسكرية:

إن انهزام الجيش الفرنسي في أوربا وفشله في احتلال مصر والانسحاب منها قد دفع بنابوليون أن يبعث بأحد ضباطه إلى الجزائر في الفترة الممتدة من 24 ماي إلى 17 جويلية 1808م لكي يضع له خطة عسكرية تسمح له بإقامة محميات فرنسية في شمال إفريقيا تمتد من المغرب الأقصى إلى مصر، وفي عام 1809م قام هذا الضابط العسكري "بوتان" بتسليم المخطط العسكري لاحتلال مدينة الجزائر إلى نابوليون واقترح أن تحتل المدينة عن طريق البر.

وعند انهزام نابوليون في معركة واترلو سنة 1815 وتحالف الدول الكبرى ضد الجيش الفرنسي في أوربا شعر ملك فرنسا انه من الأفضل أن يعتمد على سياسة التوسع في شمال إفريقيا ويعمل على اشغال الجيش بمسائل حيوية تتمثل في احتلال مدينة الجزائر وتحقيق انتصار باهر هناك، وبالتالي يتخلص الملك من إمكانية قيام الجيش بانقلاب ضده في فرنسا.

3- الأسباب الاقتصادية:

كانت أوربا بسبب ازدهارها تشعر بالحاجة إلى التوسع واستغلال الآخرين في ما وراء البحار، هذا التنافس جعل فرنسا تعزم على احتلال الجزائر، ومن ثم التوسع على حساب باقي الأقطار والاستئثار بخيراتها.

وقبل الحملة بقليل أي في سنة 1827م، كتب وزير الحربية الفرنسي"كليرمون تاليران" تقريرا عن الأوضاع العامة في الجزائر وخص بالذات مدينة الجزائر حيث قال: "*توجد مراسي عديدة على السواحل، يعتبر الاستيلاء عليها فائدة كبيرة...، وتوجد في شواطئها ملاحات غنية، والى جانب كل هذا توجد الكنوز المكدسة في قصر الداي وهي تقدر بأكثر من خمسون مليون فرنك*"... فالجوانب الاقتصادية كانت حافزا قويا في إقدام فرنسا على احتلال المدينة، فكانت تطمح في خيراتها والبحث عن أسواق جديدة لترويج منتجاتها.

4- الأسباب الدينية:

في الحقيقة أن الصراع الذي كان قائما بين الدول المسيحية الأوربية والدولة العثمانية الإسلامية قد انعكس على المسلمين بمدينة الجزائر لأن الأسطول الجزائري يعتبر في نظر الدول الأوربية امتدادا للأسطول العثماني، مما دفع بالدول المسيحية في أوروبا أن تتعاون فيما بينها لضرب المسلمين بمدينة الجزائر وإستانبول، وقد كان المسيحيون يتهمون الجزائريين بأنهم كانوا يقومون بالقرصنة في عرض البحر الأبيض المتوسط، وسجن المسيحيين الذين يعملون في السفن إلى أن تدفع دولهم عنهم الفدية.

وتظهر النية المبنية من طرف فرنسا المسيحية لاحتلال مدينة الجزائر المسلمة في التقرير الذي رفعه السيد "كليرمون" وزير الحربية الفرنسية إلى مجلس الوزراء الفرنسيين المؤرخ في 14 أكتوبر 1827م والذي قال فيه: "*انه من الممكن ولو بمضي الوقت أن يكون لنا الشرف في أن نمدنهم وذلك بجعلهم مسيحيين*"، و نفس الاستنتاج نستخلصه من خطاب الملك الفرنسي شارل العاشر الذي أعلن أمام الجمعية الوطنية الفرنسية يوم 02 مارس 1830م بان "*التعويض الهائل الذي أريد الحصول عليه وأنا اثأر لشرف فرنسا، سيتحول بمعونة الله لفائدة المسيحية*" ومن ثمة فإن الحملة العسكرية على مدينة الجزائر ونجاحها يعتبر انتصارا للمسيحية، وهي استمرار للحروب الصليبية.

وهكذا اختلفت الأسباب والذرائع مما يتبين أن فرنسا كانت لها عزيمة قوية لاحتلال الجزائر، فأعدت العدة، وحسبت لكل لها شيء وعندما تهيأت الظروف كانت الحملة على المدينة ثم أخذت في التوسع لتشمل كل البلاد الجزائرية.

مراحل الحملة على المدينة.

أ- الحصار البحري (1827م-1830م).

هكذا أصبحت الظروف مناسبة لتطوير الأزمة واتخذت فرنسا من حادثة المروحة ذريعة لاحتلال الجزائر، ورغم أن الداي أكد لبعض المقيمين بالجزائر انه لم يقصد إهانة فرنسا، وانه مستعد للاعتذار عن الغضب، إلا أن القنصل زاد الأوضاع تعقيدا فبمجرد وصوله إلى باريس جهزت فرنسا أساطيلها وبعثتها إلى المدينة تحت قيادة الأميرال "كوليت" (*Colette*) يطالب الداي من وجوب تقديم اعتذار لقنصلها العام "ديفال" وكان الإنذار الذي قدمته فرنسا للجزائر بواسطة قنصل "ساردينيا" "دات لي" الذي أصبح يرعى المصالح الفرنسية بالمنطقة. وتضمن الإنذار ما يلي:

1- على كبار شخصيات الجزائر التوجه إلى السفينة وتقديم اعتذار إلى قنصلها.

2- عند إعطاء الإشارة يجب رفع العلم الفرنسي فوق القصر وجميع أبراج وحصون المدينة.

3- يمنع مصادرة الأموال العائدة إلى فرنسا وسفن الدول الصديقة.

4- لا يحق للقراصنة تفتيش السفن التي تحمل العلم الفرنسي.

5- على الداي الاعتراف بالامتيازات القائمة بين فرنسا والدولة العثمانية وتطبيق لامتيازات.

وأعطيت للداي مهلة 24 ساعة لتنفيذ هذه الشروط، إلا انه رفض الصلح واعتبر هذه الشروط إذلالا له ولحكومته بالمدينة، ويقول في هذا الصدد ابن أبي الضياف: "لكن الداي حسين رفض الصلح، رغم أن بطانته كاملة، نصحته بوجوب الصلح لكنه رفض". واشتد رفض الداي من خلال قوله: "لا نجعل الصلح بيني وبينكم فضلا على أن أعطيكم رجلا من عندي" وأمام هذا الرفض هدد الداي بأنه سيفرض حصارا بحريا، فقامت السفن الفرنسية بالإقلاع من المياه الجزائرية من شهر جوان 1827م ومعها القنصل، وبعض الفرنسيين المقيمين بالجزائر بينما بقيت بعض السفن لمحاصرة شواطئ المدينة.

شرع في تطبيق الحصار في 15 جوان 1827م، وكرد فعل على هذا الحصار أمر الداي حسين بهدم المؤسسات الفرنسية في القالة وعنابة وكان ذلك في 26 جوان 1827م، وكانت مهمة الحصار سهلة لأنه لسوء الحظ كانت معظم وحدات الأسطول البحري الجزائري في اليونان تشارك إلى جانب الدولة العثمانية في "معركة نافارين" في أكتوبر 1827 إذ لم تستطع السفن المتبقية أن تواجه الحصار.

وللعلم فإن فرنسا لم تكتف فقط بهذا الحصار بل أقدم سفيرها في إستانبول على تقديمه للمذكرة المترجمة التي سلمها لرئيس الكتاب العثماني في 2 أوت 1827م، يطالب من خلالها الحكومة العثمانية على وجوب تدخلها لتأديب الداي حسين، ولقد جاء فيها: "*وحيث أن الداي زاد من تعدياته السابقة بتحقير قنصل فرنسا بالجزائر، فإن جناب ملك فرنسا اضطر لطلب ترضية عالمية مهددا بإعلان الحرب في حالة رفض طلبه، وحيث أن طلبه قد رفض وعليه فالحرب محققة*". لكن هذا لم يمنع من القيام بمحاولات لفك الحصار، منها تلك المعركة التي كانت بين الأسطول فرنسي بقيادة الأميرال "غولي" "gollet " والأسطول الجزائري المتكون من إحدى عشر سفينة، لمحاولة فك الحصار، ودامت المعركة عدة ساعات أدت الى تراجع الفرنسيين أمام سفن الأسطول الجزائرية، كما تكرر الصدام بين الطرفين في أكتوبر 1828م، إذ حاول بعض الرياس مرة ثانية،

لكن لم ينجح فأضاعوا أربعة مراكب في نواحي "كاب كاسين" غرب مدينة الجزائر ، وقد دام الحصار لمدة 3 سنوات، وكان الحصار طويلا وصعبا جدا، تضرر منه الطرفان، حيث كلف فرنسا حوالي 20 مليون فرنك كما تمكن جزائريون من أسر بعض رجال البحارة الفرنسيين وقتلهم. أما مدينة الجزائر فقد أضر بها الحصار كثيرا، فالتبادل التجاري للمدينة مع أوربا شُل تماما، وسجل ارتفاعا في الأسعار داخل الأسواق المحلية للمدينة مما أدى إلى تدهور الأوضاع الداخلية للمدينة وهكذا أصبح الحصار يقلق الرأي العام.

ونتيجة لذلك قررت فرنسا التفاوض من جديد مع الداي حسين، فأرسلت "دينريس" (Daenerys) على شريطة انه عندما يصل إلى الجزائر يكون التفاوض بين الداي حسين والضابط "لابروتينير" «la broténniere» وتم اللقاء بين الطرفين في 30 جويلية 1829م واجتمع الوفدان بالقصبة لمدة ساعتين، ونوقشت خلالها الشروط التالية:

1- إفادة شخصية جزائرية تعبر عن رغبة الداي في إبرام صلح مع فرنسا.

2- يتعهد الداي بإطلاق سراح أسري السفن البابوية.

لكن الداي حسين رفض وطلب من الضابط مغادرة المدينة فورا، وحدد الأجل بساعتين، ولكن الضابط لم يستطيع الخروج بسبب الرياح ولم يقدر على السفر، وكان الباشا "الداي" قد أمر كل من وكيل الحرج، وباش طبجي، أن يضربوا السفينة إذا انتهت الساعتين، فلما انتهت الساعتان ضربوها فقام في ذلك الوقت وخرج وهم يضربونه، ولما وصل "لابروتنير" إلى فرنسا، كتبوا للسلطان محمود، واخبروه بما فعل معهم ، فقام محمود بإرسال رسولين إلى مدينة الجزائر، ينصحان الداي بالاعتدال وعدم الوقوع في الشرك الفرنسي، فلم يستمع الداي لهما لشدة ثقته في الانتصار.

اجتمع البرلمان الفرنسي واتفق مع جميع الوزراء أن يستعد لغزو مدينة الجزائر واعتقد رئيس الحكومة الفرنسية "بولونياك" انه سيجد الحل لإسقاط المدينة وغزوها، عن طريق تحريض محمد علي،[5] فاستقبل وفدا قادما من مصر يحمل أراء عرفت فيما بعد باسم "مشروع محمد علي" لحل الخلاف الدائر بين البلدين، وبناء على المشروع فقد عرض محمد علي على فرنسا أن تساعده في أن يصبح حاكما على طرابلس وتونس والجزائر، واقترح أن يمر جيشه بالساحل الإفريقي الشمالي المحمي بالأسطول الفرنسي البحري، وقد قال محمد علي للقنصل الفرنسي بالقاهرة عندئذ انه قادر على إنهاء المشكلة الجزائرية بتجنيد 68 ألف رجل و23 سفينة وتوفير 100 مليون فرنك لتغطية نفقات الحملة، ولكن في الأخير عارض كل من وزير الحربية "بورمون" ووزير البحرية "دي هوسي" مشروع محمد علي عند مناقشته في مجلس الوزراء، واعتبر المشروع إهانة للشرف الفرنسي في نظرهما.

"فمحمد علي لم يكن يختلف في نظرهما كثيرا عن "حسين باشا"، وأمام إصرار "بولينياك" في استخدام مسلما ضد مسلم عدل المشروع المقترح عدة مرات إلا انه لم يلقي تأييد من طرف مجلس الوزراء الفرنسي وتعارضت المصالح بين محمد علي وفرنسا أدى إلى قطع المفاوضات نهائيا.

---

[5] **محمد علي باشا** (و. 4 مارس 1769 في قَولة – ت. 2 أغسطس 1849)، هو قائد عسكري تراقي في الجيش العثماني، بعد سنوات من تعيينه والي أعلن نفسه باشا مصر والسودان مستقلا بهما عن الدولة العثمانية. يعتبر محمد علي مؤسس مصر الحديثة وحكمها في الفترة من 1805 حتى 1848. بداية حكمه كانت مرحلة حرجة في تاريخها بالقرن التاسع عشر حيث نقلها محمد علي من عصور الظلام إلي أن أصبحت دولة قوية يعتد بها. للاطلاع أكثر حول هذه الشخصية، عد الى: **عمر الإسكندري وسليم حسن**، تاريخ مصر من الفتح العثماني الى قبيل الوقت الحاضر، مؤسسة هنداوي، مصر 2014.

وهكذا ففي جلسة 30 يناير 1830م قرر مجلس الوزراء الفرنسي، بعد دراسة استغرقت أربع ساعات، القيام بحملة ضد مدينة الجزائر. وفي 7 فبراير اقر الملك شارل العاشر مشروع الحملة وأصدر مرسوما ملكيا بتعيين الكونة "ديبورمون" قائدا عاما للحملة والأميرال "دوبيري" قائدا للأسطول البحري، وقد بدأت الاستعدادات الحثيثة لتنفيذ المشروع.

ب– استعدادات المدينة لمواجهة الحملة.

بينما كانت فرنسا تستعد للقيام بحملة عسكرية ضد مدينة الجزائر كانت هذه تستعد أيضا لمواجهة الحملة، حيث أقدم الداي حسين باشا الى تخصيص مرتبات لعدد من الجواسيس في كل من ايطاليا ومرسيليا وطولون وباريس، فنقلوا إليه خبر استعداد فرنسا لغزو المدينة وإنها أعدت أسطولا رهيبا لإرساله، وقد أكد هذا الخبر سفينتان جزائريان استطاعتا أن تتسللا ليلا بين السفن الفرنسية المحاصرة، كانت أحداهما تحمل العلم الانجليزي والأخرى العلم الإيطالي. وكان هذا الأسطول يتألف من حوالي مائتي سفينة حربية و500 سفينة تجارية، ومن ضمن الأخبار التي نقلت أن الأسطول سيبلغ الشواطئ الجزائرية في شهر ماي 1830، وأنه سيرسو على الأرجح غرب المدينة في شبه جزيرة سيدي فرج.

ولهذا كان حسين باشا على علم بتفاصيل الحملة قبل وقوعها، وتبعا لاطمئنانه الوهمي أن هذه الحملة لن تتعدى الضرب من البحر شأنها شأن الحملات الأوربية السابقة ، ففاته أن يعد جيشا ليتمركز حول المدينة، وترك تلك الفرق التي كانت عليها أن تقاتل الفرنسيين عند نزولهم إلى البر تقيم على مسافة من المدينة، وكان ذلك من حسن حظ الفرنسيين عند نزولهم إلى البر كما سنرى فيما بعد، أما الاحتياطات الوحيدة التي اتخذت على الجانب البري، فتتمثل في أن الآغا إبراهيم أمر بإضافة مدافع إلى حامية سيدي فرج، وأرسل إليها بضع مئات من الجنود، كما أقام مخازن للحبوب من القمح والشعير في المدينة وما حولها تتسع لحوالي (مئة وثمانين ألف مد)، أما الجهة البحرية فقد حظيت بعناية أكثر، وخاصة الميناء، فقد كانت الحاميات والمواقع الدفاعية تمتد على بضعة آلاف من المدافع الثقيلة،وكانت مزودة بكل ما يلزم من الرجال والذخيرة .

الى جانب ذلك أقيمت ثلاث سلاسل قوية متينة قرب الساحل داخل الميناء، وكانت السفن الحربية راسية خلفها، وأمامها "خمسون زورقا"، ثمانية منها مزودة بالقذائف والباقية بالمدافع ذات العيار الثقيل".

كما سمح الداي لجميع العرب والقبائل بحمل السلاح الذي كان محرم عليهم سابقا، وأخبرهم أيضا بأنه سيأمر بمجرد مشاهدة الأسطول الفرنسي بان تطلق المدفعية طلقتين اثنتين ليسرعوا إلى الحيلولة دون نزولهم إلى البر أو إعاقتهم عن ذلك على الأقل.

وأرسل حسين باشا المراسيل إلى الداخل يدعون إلى الجهاد ضد الفرنسيين، فوعده الحاج احمد باي قسنطينة ب 30 ألف محارب، ووعد حسن باي وهران ب 6 آلاف محارب، ووعد مصطفى بومزراق باي التيطري ب 20 ألف محارب، وجمع شيوخ جرجرة بين 16 و18 ألف محارب، وجمع أهالي ميزاب حولي 4 آلاف محارب.

فهل استطاعت قوات حسين باشا، برغم هذه الاستعدادات الظاهرية، من صد الهجوم وحماية المدينة؟

ج– سير الحملة نحو الجزائر:

تدهورت الأوضاع كما ذكرنا سابقا وحدثت القطيعة التامة بين فرنسا والجزائر، فقررت أن تغزو مدينة الجزائر باعتبارها مقرا للسلطة، بقوات ضخمة، وقد أعدت الحملة إعداد محكما، فقد كان تقرير "بوتان" منظما دقيقا، أتى بجميع الترتيبات لاحتلال المدينة، كما عمل "دي بورمون" منذ تعيينه قائدا على الحملة في التفكير وجمع المعلومات اللازمة لمهمته، وفي 20 مايو 1830مأذع "دي بورمون" بيانا على ضباط الحملة والجنود حثهم فيه على حسن الاستعداد، وفي يوم 25 ماي 1830غادرت الحملة الفرنسية ميناء طولون الحربي مؤلفة من:

37000 جندي من المشاة والفرسان.

27000 جندي بحار.

103 سفينة حربية.

572 سفينة تجارية فرنسية وغير فرنسية تحمل المؤونة والذخائر والجنود.

تقرر إنزال الجنود عند سيدي فرج والزحف برا صوب المدينة والسيطرة على قصر الداي وكذا ضرورة محاصرة المدينة بالسفن الحربية ومنع وصول المئونة إليها.

نزلت أول هذه القوات يوم 19 جوان 1830 بميناء سيدي فرج وكأنهم جراد منتشر، ولم يكن هناك لا مدافع ولا خنادق سوى حوالي 12 مدفعا صغيرا وضعها الآغا يحي عند بداية الحصار، ولم يكن لدى الأغا إبراهيم أكثر من 3000 فارس، وكان باي قسنطينة لا يملك إلا عددا قليلا من المحاربين، أما باي التيطري فلم يصل إلا بعد عدة أيام من نزول الجيش الفرنسي. أما جيش إقليم وهران فلم يكن بعيدا عن سيدي فرج، وكان باي التيطري قد وعد الباشا ب 20 ألف فارس ولكنه حين وصل إلى الميدان لم يأت سوى ب 1000 رجل.

كانت هذه القوات مجتمعة في معسكر "اسطاويلي"، وكان الداي حسين ينتظر النصر هناك، ففي بداية المعركة كانت الكفة لصالح قوات الداي، فأمر القائد "دي بورمون" بزيادة المدد والمئونة، فقام بهجوم مضاد، هكذا تغلب الجيش الفرنسي وتمكنوا من السيطرة على المنطقة.

عند الهزيمة في اسطاويلي في 19 جوان 1830 هرب الأغا إبراهيم (قائد الجيش) من الميدان تاركا وراءه الجيش، فاستولى الفرنسيين على قلعة مولاي الحسن، وشيئا فشيئا بدأت روح الهزيمة تدب في أوصال الجهاز الإداري والاجتماعي، فجمع الداي حسين أعيان المدينة ورجال القانون والدين وشرح لهم الوضع الذي أمامهم وطلب منهم النصيحة فيما يفعل لمواجهة الموقف. وقد وضع أمامهم السؤال التالي: هل من الصواب مواصلة المقاومة؟ أو يجب تسليم المدينة والتوقيع على معاهدة الاستسلام؟ وبعد تقليب الموضوع من عدة أوجه اجابوه بجواب غامض، وهو على أنهم على استعداد لمواصلة الحرب، ولكن إذا كان رأية غير ذلك فهم يطيعون الأوامر، وقد كان للبيان الذي وزعه الفرنسيون بمهارة تأثير على المجتمع، مقتنعين بأن الفرنسيين قد جاءوا حقا محررين إياهم من سلطة الأتراك، وكانوا يعتقدون أن فرنسا المتحضرة لا يمكن أن تعد بشيء إلا إذا كانت راغبة في التنفيذ، فأصبح هؤلاء من أنصار الحل السلمي. وقد تسبب هذا البيان والفارغ في شل الطاقة المحاربة.

ففي ليلة 2 جويلية عام 1830م أي قبل ثلاثة أيام من دخول الجيش الفرنسي للمدينة، اجتمع عدد من أعيان مدينة الجزائر، في قلعة باب البحرية، وكانوا يمثلون التجار وأرباب المال، وقرروا أن ضياع المدينة أصبح أمرا محتوما، وأنه إذ ما دخلها الفرنسيون عنوة فإنهم سيبيحونها وينهبون ثرواتها ويعتدون على النساء ويقتلون الأطفال، ورأوا، تفاديا لذلك قبول اقتراح الباشا الذي ينص على الاستسلام بعد توقيع المعاهدة، وأن الفرنسيين سيتركونهم يتمتعون بدينهم وتقاليدهم وسيتركون لهم أملاكهم ومساجدهم وزواياهم. فلماذا إذن يقاومون الجيش الفرنسي ويزهقون الأرواح بدل التوقيع على معاهدة الاستسلام؟ وفي النهاية قرروا عدم مقامة الفرنسين عند دخول المدينة

وأرسلوا وفدا عنهم إلى القصبة لمقابلة الباشا واطلاعه على ما اتفقوا عليه. وقد أجابهم الباشا بأنه سينظر في القضية خلال اليوم التالي.

وفي اليوم المعين 4 جويلية 1830 أرسل حسين كاتبه مصطفي مصحوبا بالقنصل الانجليزي إلى مقر القيادة الفرنسية للتفاوض مع "دي بومون"، كما ذهب أيضا احمد بوضربة وحسن بن عثمان خوجة، وبعد التفاوض ومراجعة الباشا، وقعت معاهدة الاستسلام يوم 05 جويلية 1830.

د– معاهدة الاستسلام وسقوط مدينة الجزائر.

وُقّعت هذه المعاهدة بين القائد العام للجيش الفرنسي الكونت (دي بورمون)، وداي الجزائر (حسين باشا) وهي تنص على ما يلي:

– يسلم حصن القصبة، وكل الحصون التابعة للجزائر، وميناء هذه المدينة إلى الجيش الفرنسي صباح اليوم على الساعة العاشرة (بالتوقيت الفرنسي).

– يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي تجاه صاحب السمو، داي الجزائر، بترك الحرية له، وحيازة كل ثرواته الشخصية.

– سيكون داي الجزائر حرا في أن يتصرف هو وأسرته وثرواته الخاصة إلى المكان الذي يعينه، ومهما بقي في الجزائر سيكون هو وعائلته تحت حماية القائد العام الفرنسي، وسيتولى حرس ضمان أمنه الشخصي وأمن أسرته.

– يضمن القائد العام لجميع جند الإنكشارية نفس الامتيازات ونفس الحماية.

– ستبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة، ولن يلحق أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات، ولا بدينهم، ولا بأملاكهم، ولا تجارتهم وصناعتهم، وستكون نساؤهم محل احترام والقائد العام يلتزم على ذلك بشرفه.

– سيتم تبادل هذه المعاهدة قبل الساعة العاشرة، وسيدخل الجيوش الفرنسيون عقب ذلك حالا إلى القصبة، ثم تدخل بالتتابع لكل الحصون المدنية والبحرية.

وأمام ضعف الداي وهزيمته العسكرية والديبلوماسية وانهياره النفسي لم يجد أمامه سوى الرضوخ لهذه الشروط المجحفة في حقه، ووقع معاهدة الاستسلام مع القائد الفرنسي المنتصر وذلك يوم 5 جويلية على الساعة العاشرة صباحا وسلم مفاتيح المدينة وخزائنها لفرنسا، وفي يوم 10 من نفس الشهر غادر هو الجزائر إلى نابولي فالإسكندرية حيث قضى فيها بقية عمره حتى توفي سنة 1838، وبرحيل الداي حسين عن الجزائر رحل معظم جنود الأتراك عن البلاد إما خيارا أو قصرا آما نرى لاحقا.

وفي يوم 06 جويلية 1830م دخل الجنود الفرنسيين مدينة الجزائر من الباب الجديد بأعلى المدينة وأنزلت أعلام دولة الداي من جميع القلاع والأبراج وارتفعت في مكانها رايات الاحتلال الفرنسي، وأقيمت صلاة للمسيحيين وخطب فيها كبير قساوة الحملة، فقال مخاطبا قائد الحملة الفرنسية: "*لقد فتحت بابا للمسيحية على شاطئ إفريقيا*".

وبمجرد أن دخلت القوات الفرنسية المدينة وضعت يدها على خزائن الداي والدولة بعد أن نالت منها يد السلب والنهب من قبل الجنود والضباط وقدر المؤرخون قيمتها وقتئذ ب100 مليون فرنك، ثم هبط العدد إلى 48 مليون، وذلك ما أثار الشكوك لدى إدارة دوبورمون وكون لذلك لجنة خاصة للتقصي ومعرفة الحقيقة، ولكنه أقفل الموضوع حرصا على سمعته وسمعة فرنسا التي قالت للرأي الدولي أنها جاءت للجزائر للثأر من الداي لا غير.

ومع ذلك اقترح قائد الحملة أن تقسم الأموال على الجنود والضباط، آما يكافئون بتوزيع عليهم الأراضي وإبعاد أصحابها منها، ولو أن الحكومة الفرنسية رفضت الفكرة .وقد بعث قائد الحملة إلى خزينة فرنسا ما مقداره 43 مليون فرنك كتعويض

على نفقات الحملة، واحتفظ ب 5 ملايين لتسيير الإدارة .ومن هنا يتضح جلاء الهدف من الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830، إذ أن هذه الحملة قد ارتبطت بعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية صليبية.

ومما سبق ذكره نجد أن حادثة المروحة التي ضخمته الإدارة الفرنسية لتحقيق أهدافها التوسعية بشهادة أكبر الساسة الأوربيين محافظين ورجعية في ذلك الوقت إلا سببا واهيا، فهذا الزعيم مترنيخ[6] رئيس وزراء دولة النمسا الذي كان من أكبر المحافظين الرجعيين يقول في ذلك الصدد أنه لا يعارض أكثر من 40 ألف رجل للموت وينفق أكثر من مليون فرنك من أجل لطمة مروحة والواقع أن فرنسا قد فقدت مستعمراتها الواسعة في كندا بأمريكا الشمالية، وكذلك في مصر والهند بآسيا وإفريقيا، وبذلك زين لها ساستها أنه يتم تعويض ذلك النقصان باحتلال الجزائر التي تحتوي على منافع مادية ضخمة، كما تحصل على خزائن الدولة المملوءة ذهبا وخيرات واسعة كما تجعل من الجزائر موطنا لتصدير الفائض من سكانها الغير مرغوب فيهم ببقائهم في فرنسا من المجرمين وحتى المعارضة، كما تجعل من مناطق نفوذها بالجزائر سوقا لمنتوجاتها الصناعية وموردا هاما والبحث على الأيدي العاملة الرخيصة والموارد غير المتوفرة في فرنسا.

وبرغم نشوة الانتصار والوصول إلى تحقيق الغاية الفرنسية المتمثلة في الغزو والتوسع في الخارج وبناء إمبراطورية جديدة، إلا أن ذلك لم يرق آل الفرنسيين وظهرت المعارضة بشكل قوي مما أطاحت بشارل العاشر بعد قيامها بثورة جويلية الباريسية سنة 1830، ومن ثم فقد أسقطت هذه الثورة الحكومة، كما أحدثت آثارا خطيرة في العلاقات الدولية وفي مركز فرنسا نفسها، ومما يلاحظ أيضا توقف بريطانيا عن معارضتها المألوفة وخصومتها المعهودة لفرنسا فيما يخص القضية الجزائرية.

وكل ذلك جعل من السلطة الفرنسية الجديدة أن تحول الرأي العام الفرنسي للنظر في مشكلة الجزائر من زاوية المصلحة الفرنسية الاستعمارية والتمسك بالاحتلال التدريجي ريثما يتم التوسع، وقد عرفت هذه الفترة حتى 1834 ما يعرف بمرحلة التريث. ولو أنها لم توقف التوسع منذ استسلام القصبة وتسليم مفاتيح خزائنها، وبذلك يمكن القول أن الإدارة الجديدة اختارت سياسة التوسع والسيطرة على الأراضي المجاورة للعاصمة وخصوصا أراضي منطقة متيجة برغم المقاومة الشعبية التي لم تنقطع.

والخلاصة من هذا كله أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر لم يكن بغتة، بل كان وفق خطة ومنهجية مدروسة منذ قرون خلت، واتضح ذلك في مطالبة فرنسا دوما من الايالة الحفاظ على امتيازاتها في السواحل الجزائرية دون غيرها من الدول الأخرى المنافسة لها .كما أن الاحتلال جاء سهلا بسبب الضعف السياسي والعسكري والاقتصادي الذي كانت تعاني منه الجزائر في أواخر المرحلة العثمانية من جهة ومن جهة أخرى قوة فرنسا وبناء نفسها من جديد بغية استعادة ما ضاع منها في المستعمرات الأخرى سواء في العالم الجديد أو في آسيا وبالفعل فقد عوضت فرنسا من جراء احتلالها للجزائر كل ذلك، وما وجدته في خزينة الداي حين عوض لها تكاليف الحملة، بل مسح لها الديون التي كانت عليها للجزائر، وأصبحت فرنسا المنتصرة على الجزائر المهزومة لأن الداي فضل المنفى في الإسكندرية وترك وقتها الشعب الجزائري تحت نير الاستعمار الفرنسي الذي دام بقاؤه في الجزائر أزيد من القرن والنصف وكانت الجزائر إحدى جوهراته الاستعمارية.

---

[6] **ميترنيخ**: الأمير كليمنس فينزل مترنيخ (Klemens Wenzel Nepomuk Lothar von Metternich) (15 ماي 1773 – 11 جوان 1859) سياسي ورجل دولة نمساوي، من أهم شخصيات القرن التاسع عشر... ينسب إليه وضع قواعد العمل السياسي التي سارت عليها القوى الكبرى في أوروبا طوال الأربعين عاما التي أعقبت هزيمة نابليون بونابرت... شكلت مبادئ مترنيخ، والتي تبلورت خلال مفاوضات مؤتمر فيينا، مجرى الأحداث السياسية الأوروبية الأساسية. ويعتبره البعض خير من طبق مبادئ الميكيافيللية السياسية بصورتها الكلاسيكية.